وأخيرًا كان يتعين علىَّ في المقام الأول – فيما أرى – أن أوضح – على الأقل – درجة قناعتي باللامية من حيث صحة نسبتها للشنفرى من واقع الدلائل والأدلة ؛ فتلك ركيزة أولى ، وعن الركيزة الثانية التي آثرتُ أن أُلمِّحُ إليها أيضًا ؛ سِمة القصصية لا سيَّما الجانب الذاتي فيها (٦٥)

سمت السيرة الذاتية في شعر الصعاليك

يتميز شعر الصعاليك بأنه يحتوى على طابع القصصية ؛ والأقرب للأمر سمت (السيرة الذاتية) ، وهذه خصيصة يلمسها المُطالع لشعر الصعاليك ، ونتأتى من أن الصعلوك يجعل من ذاته مركزًا لكل موضوعاته التي يتحدث فيها ، بمعنى أنه لا يتطرق إلى شيء أو شخص إلا بالقدر الذي يعنيه من حيث ارتباطه بهذا الشيء أو الشخص.

والملاحظ أن الشعراء ــ من غير الصعاليك فـي الأغلب ــ يطرقون موضوعات لذاتها ربما لا ترتبط مباشرة بهم ، فمثلاً ف ي غالبية قصائد المديح شخصية الشاعر بعيدة عن الممدوح [٦٦] ، فقد نعلم الكثير المستفيض عن هذا الممدوح ، ولكننا لا نعلم عن شخصية الشاعر شيئًا ، وقد يذكر الشاعر خلالها أحداثًا تتعلق بالممدوح لا الشاعر ، ولكن شعر الصعاليك مركزه ومداره فـي الآن ذاته الصعلوك نفسه ، حتى لئن تطرق لموضوعات حياتية تبدو بعيدة ، فهو من قبيل الانشغال بالخارج لإبراز الداخل ؛ فالشاعر الصعلوك مَجْمَعُ الأشتات .

وقد يُفسر هذا المسلك الذاتي للشعراء الصعاليك أن الصعلوك قد طُرد فعليًا و نفسيًا عن المجتمع ، فلا تربطه بذلك المجتمع أية روابط آنية اللهم إلا إحساس الثورة وفورة الغضب على قِيم ظالمة فـي ذلك المجتمع ، أضف إلى هذا التفسير أن الشاعر الصعلوك هو القضية ومصدر الإعلام عنها أو قل عن نفسه ، فهذه الفئة من الصعاليك لا تحظى بالقبول أو الشرعية ال تي للقبيلة ؛ فللمجتمع القبلي يخلد مآثره شعراء القبيلة فـي المحافل فهذا دورهم ، أما فئة الصعاليك فلا محافل لهم بل مراقب [٦٧] ، ومن ثم فالشاعر الصعلوك لم يشعر برابطة بينه وبين المجتمع ، ولكنه ارتبط بحياة الصعلكة ، فكل ما يتحدث عنه مرتبط بشخصه وفئته .

وعن البناء الفني لقصائد الصعاليك ؛ تجد أن الشاعر الصعلوك يستطيع أن يجمع في قصيدة واحدة بين موضوعات متفرقات أو متباعدات ، وعلى الرغم من ذلك تأتلف بسبب هذه السمة ؛ أعنى الذاتية التي يمكنك أن تتواطر بها شعر الصعاليك غالبًا ، فالتذاوت يمثل حرص الوعي الشعري على إنسانيته وعلى تعاليه ، و هو يعبر عن انتمائه للآخر وحاجته إليه لكي يحقق ا لإنسان الجمالي الذي يسع ى إليه ؛ وإذ ذاك توجد الهُوية الشخصية النهائية[٦٨].

وهذا ما قد يسوغ طـرح شـعر الصعـاليك في أحد مـرائيه ضمن أدب السـيرة الذاتيـة ؛ أعني أنه يقترب من طريقة كتابة المذكرات الشخصية

التي يدون فيها صاحبها أحداثًا ومواقف أو فترات من حياته متقاربة أو متباعدة ، متفقة أو مختلفة ، ومع ذلك لا ترى في ذلك تناقضًا لكونها مرتبطة بشخصه [٦٩] ، وكأن شخصيته هي البوتقة التي تتصهر الأشتات والمُتنافرات فيها[٧٠].

وعن مدى اقتراب لامية الشنفرى من هذا التصور ـ أي أن اللامية في أحد أبعادها تمثل السيرة الذاتية للشنفرى ـ فهي تقترب في شيء كثير بدرجة تدفعنا أن نعدها سيرة ذاتية شعرية لا نثرية ـ إن جاز لنا التعبير ـ فالأحداث والمشاهد تبدأ وتنتهي من شخصية الشنفرى وعندها ، فاللامية ترتبط أفكارها بشخصية الشنفرى ، ومع أن هناك مشاهد تصلح أن توصف لذاتها دون ارتباط بشخص أو بشيء ،ويمكن لأي شاعر أن يتناولها كذلك ، إلا أن الشنفرى يجعل كل شيء ، مشدودًا إليه وجزءًا منه ، وهذه براعة الفنان وسر البقاء فهي تمس جوهر الأنا وتلتقي مع الآخر في الآن نفسه .

القِيم الإنسانية في الشعر الجاهلي :

الإنسان– على وجه الإطلاق وعلى مر العصور – أفاد من عقله وتكوّنت قيم ومفاهيم لديه لهذا الكون اعتبرها في ذهنه ، وأصبحت ضرورة لحفظه وبقائه والحقبة الجاهلية سادتها قيم اجتماعية وأخلاقية ودينية ، فالتزم الإنسان الجاهلي بها وخاض الحروب من أجلها ، ولا يعني ذلك أن القيم ثابتة فثباتها وقدسيتها مشروطان بإتفاق المجتمع الذي تربطه أواصر جغرافية وحضارية واحدة أو متقاربة ، فتنشأ القيم التي تحمي ذلك المجتمع وتحكم التعامل بين أفراده .

وتبدو بعض القيم التي سادت في عصور غابرة شيئًا غير ذي بال بالنظر إلى اختلاف وُجهات النظر في عصر تعددت مشاهده وكثرت تعقيداته ، وتنوعت أحداثه وتناقضاته ، ولكن هناك قيمًا ظلت باقية بحكم ائتلافها مع متطلبات الإنسان ، والإنسان لا يتقبّل قيمًا ويرفض أخرى بناء على مزاج خاص أو رغبة فردية فالأمر رهن للتطور الإنساني وتعاقب الحضارات ؛ مما يجعل بعض القيم نسبية ، وبعضها الآخر ثابتًا وفق حاجات الإنسان وطموحاته

وفي ضوء ما سبق ، تبدو القِيم نسبية ، وعن الإنسان الجاهلي فقد وجد نفسه محاصرًا بصراعات وجودية ، وكان عليه مقاومة تلك الصراعات للمحافظة على بقائه ، ومن ثم آثر قيمًا على حساب أخرى، فظروف الحياة حتَّمت عليه الإقرار بها سعيًا وراء الغايات دونما النظر إلى الوسيلة

ولا يبعد ، أن يكون العربي الجاهلي تأثر على نحو أو آخر ببعض القيم المستمدة من الأديان السماوية السابقة على الرغم من الرأي الشائع الذي يسم العصر الجاهلي بميسم الوثنية ، فمن المرجح أن هناك نسبة معتبرة من عرب الجاهلية اعتنقت المسيحية وطبقت تعاليمها ، ولذلك أثره في إرساء القِيم لا محالة ، والقليل من الأشعار التي بين أيدينا تحمل آثارًا غير منكورة من "الإنجيل والتوراة" .(٧١) ، وأيًّا ما كان أمر هؤلاء الشعراء الجاهليين في تأثرهم بالتعاليم الدينية ، فقد افتخر الشاعر الجاهلي

بأخلاق وقيم كانت ثمرة حاجاته وصور مستقاة من مُعيشته ، فقد أشادَ ومَدَحَ في أشعاره بكرم العنصر وقوة العصبية ومنعة الجانب والشجاعة والكرم والإباء والوفاء والمروءة والعفة والعدل وما إلى ذلك ... ثم فخروا بالتعقل وتركيبه مع السخاء فينتج البِّر وإنجاز الوعد والإيثار على النفس، وما أشبه ذلك [٧٢].

فالكرم – مثلاً – قيمة أخلاقية من الصفات المتأصلة في المجتمع الجاهلي : ((فقد مجّد العربي هذا الخلق الكريم تمجيدًا يفوق كل شيء ، وكان واقع حياة العرب الاجتماعية دافعًا أساسيًا يجعل من هذا الخُلق حاجة من حاجات الناس ، وضرورة اجتماعية ؛ لذلك كان أول ما يُذكر من الفضائل في باب المديح أو باب الفخر، وكان أول ما يُسلب من الفرد أو القوم في باب الهجاء))[٧٣].

وفي مقابلة هذه القيمة الإنسانية البارزة فهنالك ما يمكن أن نُطلق عليه القيمة المناقضة ، فالعربي الجاهلي يتقبّل استباحة حِمى غيره إذا لاحظ الضعف والاستكانة لدى جيرانه [٧٤] ، وهذا ما يدعوه إلى التوسع ، ولذلك كانت جُل القبائل تسعى جاهدة لتوسيع رقعتها كلما وسعها ذلك[٧٥]. وهذا ناتج عن طبيعة البيئة الجغرافية التي تحتم على البدوي الذي يعيش في أعماق الصحراء أن يواجه صراعًا وجوديًا مستمرًا، وبذلك فإن الهدف ليس هدفًا توسعيًا متأصلاً في نفسه ، ولكنه بات هدفاً وجودياً ، ومصدرًا للبقاء.

وكما أن الجاهلي يضع صفة الكرم والسخاء موضع الصدارة في حياته فإن مثل هذا الكلام لا يتأتّى إلا حين يحس أنه حر سيد وأنه مستقل في أخذ القرار، فحينئذٍ يصبح الكرم واجبًا ، ولكنه قد يبدو بخيلاً شحيحًا سفاكًا للدّماء عندما يجد مبررًا لذلك كأن يُستباح حِماه أو يُمس عِرضه، أو تُهان كرامته بوجه عام.

وصفوة القول أن الإنسان الجاهلي كان شديد الاعتداد بنفسه ، يعيش في كنف قبيلة بجانب الماء والكلأ ، فإذا جفّ المرعى راح ينتجع أماكن أخرى، وأثناء الترحال يغزو القبائل الأخرى ، وذلك لطبيعة الأرض القاحلة فنتج عن ذلك المنافسة القبلية في المفاخرة بالانتصارات والتّهاج بالانكسارات ، مما يرضي عصبيته القبلية [٧٦].

فذلك جانب مما صوره الشاعر الجاهلي ، مما لـــه علاقة ببعض مناحي حياته في حلِّ القبيلة وترحالها وحروبها وأيامها ، ولكن - بالمقابل- لا يمكن أن نتصور المجتمع الجاهلي مجتمعًا وحشيًا بالمفهوم المطلق [٧٧] لهذا المعنى ، ففي الشعر الجاهلي ما يصور مواقف إنسانية راقية [٧٨] ننادى بها الآن مما ينمّ عن إحساس حضاري سابق لزمانه ، فعلى ما في هذا الشعر من افتخار ومبالغة نقع – في أحيانٍ كثيرة - على شعر مترع بمواقف إنسانية نبيلة ، ويصوّر مآثر اجتماعية قد تندُر في زماننا هذا ، وهذا ما نجده بجلاء ودون مبالغة في لامية الشنفرى ، والتي تصور الحياة الجاهلية القبلية ، يقول الأستاذ الدكتور يوسف خليف – رغم تحفظه على نسبة اللامية للشنفـــرى : ((وفي لامية العرب التي تعد صورة دقيقة كاملة لحياة الصعاليك في العصر الجاهلي ، حتى على فرض انتحالها وعدم صحة نسبتها للشنفرى ، يرسم الشاعر صورة رائعة لذلك الجوع النبيل الذي يشعر به الصعلوك ، ولكن نفسه الأبية تأبى عليه أن يهينها من أجله)) [٧٩] .

ولم يخلُ الشعر الجاهلي من تصوير أخلاق القوم ومثلهم العليا، وإذا كان هذا الشعر تصويرًا للحياة في مظاهرها الشاملة في مختلف جوانبها ، فهو أيضًا تصوير ذاتي ينطلق من الذات ليعبر عن الآخر، ومن ثَمَّ يبدو فرديًا لينتهي عبر إيصال الرسالة إلى الجماعي[٨٠].

وبناءً على ذلك يُعد الشاعر الشنفرى الجاهلي في لاميته راويًا لأحداث ذاته وفئته من الصعاليك والحياة العربية القبلية في الوقتِ نفسه عبر الصياغة الفنية الشعرية :((إنه مغنٍ وراوٍ ومؤلفٌ خالقٌ في الوقت نفسه ، فهو يحتذي في قصائده شعراء آخرين قد روى لهم أو اطَّلع على شعرهم ويستخدم ما استقر في وجدانه وعقله من معانٍ وصور وتعابير وصيغ أو تراكيب ، وما ألفه فيها من مواضيع ومواقف ومشاهد وأحداث وقصص))[٨١].

فالنص الشعري الجاهلي وفق هذا التصور لا نُعد مبالغين إذا عددناه نصًا تناصيًا

من حيث مبناه ومعناه ، إنه ينطلق في شكله ومضمونه من نصوص أخرى موازية أو سابقة [٨٢] ، ولكن لكل شاعر تميّزه وتفرده ، وبذلك يترك بصماته في هذا المنتوج الإبداعي على صعيديّ الشكل والمضمون ؛ فالشاعر يحتذي شعراء آخرين وهو في الوقت نفسه خالق ، ويحدث هذا بلا وعى أو عمد ؛ لأن المفاهيم الشكلية والمضامينية تخرج في إطار ما استقر في وجدانه وعقله [٨٣]، و يكون جزاء الشاعر لقاء هذا العطاء الشعري المتميز أن يظل حيًّا في النفوس حاضرًا في كل موقف من خلال هذا الشعر أو قل : إن المنتوج يُخلده ، وفى صياغة أخرى تحمل المعنى نفسه إنها : " القصيدة خارج الزمن"[٨٤] التي تبلور الرؤيا وتمثل مصدر الذكرى وسجل المآثر .